

المجلد: 08 / العدد 01 جوان (2024)، ص.ص 209-217.

النحو الوظيفي في كتاب سيبويه - قراءة في ضوء علم اللغة المعاصر Functional grammar in Sibawayh's book - reading in light of contemporary linguistics

د. بودانة طه الأمين

t.boudana@cu-aflou.edu.dz

المركز الجامعي أفلو
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/06/02

تاريخ القبول: 2024/05/26

تاريخ الاستلام: 2024/01/08

ملخص:

تُعد النظرية الوظيفية في النحو إحدى النظريات التي تسعى إلى تفسير الظواهر اللغوية من خلال ربط البنى الشككية بالسياق التواصل والواقف الاجتماعية، فهي تدرس الظاهرة اللغوية بكل معطياتها الداخلية والخارجية، ونحن إذا تأملنا النظريات اللغوية العربية كنظرية العامل النحوي نجد أنها تناولت الظاهرة اللغوية العربية من زاوية وظيفية؛ فقد كانت تحلل البنى الشككية للغة من خلال ربطها بالمقامات التواصلية المختلفة، فعلى أساس المقام التواصل تُصاغ بنية الكلام. وهذا التوجه الوظيفي نلمسه على صعيد نحو الجملة مُمثلاً في نظرية العامل التي أسس لها "سيبويه" في كتابه، فقد كانت تحليلات سيبويه في كتابه الأساس الذي اعتمد عليه عبد القاهر الجرجاني في التأسيس لعلم المعاني أو نحو النص من خلال نظرية النظم.

كلمات مفتاحية: النحو، الوظيفي، كتاب، سيبويه، قراءة..

Abstract:

The functional theory of grammar is one of the theories that seeks to explain linguistic phenomena by linking formal structures to the communicative context and social situations, it studies the phenomenon linguistics with all its internal and external parts, and if we consider arabic linguistic theories as a theory of the grammatical factor, we find that it studied the arabic linguistic phenomenon from a functional perspective. It analyzed the formal structures of the language by linking them to the various communicative positions, on the basis of the communicative contexte, the structure of speech was formulated. We see this functinal orientation at the level of sentence grammar, as represented in the theory of the factor that "Sybawayh" established in his book, and on the level of text grammar or semantics as an represented by the collocation theory that "Abdul Qahir al Jurjani" founded in his book "Dala'il al-l'jaz".

Keywords: grammar; functional; book; Sibawayh; reading.

مقدمة:

شكلت نظرية النظم التي طرحها عبد القاهر الجرجاني في أوائل القرن الخامس الهجري قفزة نوعية في الدرس اللساني العربي؛ إذ تُعد أذكي محاولة في التراث اللغوي العربي لتفسير الظواهر البلاغية على مستوى النصوص تفسيراً يرجع إلى أساسيات علم النحو، ومن المعلوم بداهة أن الجرجاني لم ينطلق في التأسيس لهذا العلم من فراغ وإنما بناء على

أسس وأصول علم النحو التي استنبطها سيبويه من استقراءه للمدونة العربية؛ والمتعمق في تحليلات سيبويه النحوية في كتابه يجد أنها تسعى في المقام الأول إلى ربط بنية اللغة بوظيفتها التواصلية، وهذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤلين التاليين: "إلى أي مدى تلتقي تحليلات سيبويه النحوية للجملة العربية مع نظرية النحو الوظيفي التي عرفها الدرس اللساني الغربي مؤخراً؟"، و"هل استطاعت النظرية النحوية العربية التي أسس لها سيبويه في كتابه التأسيس لنحو وظيفي عربي أصيل؟"، وقد سعينا من خلال هذا البحث إلى تتبع مظان المنهج الوظيفي في التراث اللساني العربي من خلال نماذج من كتاب سيبويه، ولتحقيق هذه الغاية توخينا المنهج الوصفي التحليلي الذي نراه الأنسب لهذه الدراسة.

1- تعريف "النحو" عند نحاة العربية:

يقول أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) في كتابه "الخصائص" معرّفًا النحو: "والنحو هو انتحاء سميت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره؛ كالثنية، والجمع، والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب، والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شدد بعضهم عنها زُدها إليها".¹

فالنحو عند نحاة العربية هو منهج أهل اللغة في الكلام، يتبعونه ولا يخيدون عنه شعروا أو لم يشعروا، فهو السبيل الأمثل لتعلم اللغة واستعمالها على الوجه الصحيح، وهو المعيار لتصنيف ما هو جائز لأن يُستعمل فيها مما هو بخلاف ذلك.

2- تعريف "الوظيفة" في اللغة والاصطلاح:

أ- الوظيفة في اللغة:

جاء في معجم "تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري: "والوظيفة: ما يُقدَّر للإنسان في كلّ يوم من طعام أو رزق"²، وجاء في معجم "لسان العرب" لابن منظور: "الوظيفة من كلّ شيء: ما يُقدَّر له في كلّ يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب، وجمعها الوظائف والوظف. ووظف الشيء على نفسه ووظفه توظيفاً: ألحها إيّاه، وقد وظفت له توظيفاً على الصبي كلّ يوم حفظ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ".³ أمّا مجمع اللغة العربية فقد عرّف "الوظيفة" من خلال "المعجم الوسيط" بأنها: "ما يُقدَّر عليه من عمل أو قوت أو رزق أو غير ذلك في زمن معين"⁴. فالوظيفة لغة هي الإنجاز والأداء والمهمة والعمل والواجب ونحو ذلك، سواء كان ذلك من تلقاء النفس أو بالإلزام.

ب- الوظيفة في الاصطلاح:

المقصود بالاتجاه الوظيفي في الدرس النحوي هو ذلك التوجه الذي يربط بنية اللغة أي جانبها الشكلي بوظيفة اللغة المتمثلة في التواصل والتبليغ والبيان فلا قيمة للوحدات اللسانية أو عناصر الكلام إلا في الوظيفة الكبرى للغة المتمثلة في إقامة التواصل؛⁵ فالوظيفة أو المقام التواصلية هي التي يتحكم في مبنى الكلام ويضوّعه؛ وللتوضيح أكثر نضرب المثال التالي: لتكن العبارات التالية:

1- زيد قائم

2- إنَّ زيدا قائم

3- إنَّ زيدا لقائم

فلاحظ أن مبنى الكلام أو شكله يختلف ويتغير في كل عبارة؛ وسبب هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف الوظيفة التواصلية أو المقام التواصلية؛ فالعبارة الأولى تُقال في مقام يكون فيه المتلقي خالي الذهن من أي معلومة سابقة حول هذا الموضوع، أما العبارة الثانية فتُقال في مقام يكون فيه المتلقي أو السامع يشك في قيام زيد، فيلجأ المتكلم إلى تأكيد كلامه بـ"إنَّ" المؤكدة، أما العبارة الثالثة فتُقال في مقام يكون فيه المتلقي يُنكر قيام زيد، فيلجأ المتكلم إلى زيادة تأكيد الكلام بـ"إنَّ" المؤكدة و"اللام المزحلقة". من هنا تظهر أهمية ربط الجانب الشكلي للغة بالوظيفة التواصلية، وهذا ما يسعى إلى تحقيقه النحو الوظيفي.

فالظاهرة اللغوية تتكون من قطبين رئيسيين هما: البنية والوظيفة، أو المبنى والمعنى، أو الشكل والمعنى، ويسعى الاتجاه الوظيفي في النحو لدراسة ومعالجة البنية أو المظاهر الشكلية للبنية اللغوية في ضوء الوظيفة المتمثلة في الجانب

التواصلي التداولي وليس بمعزل عنها كما كان سائدا في الدراسات اللسانية الوصفية البنيوية. فالتوجه الوظيفي يسعى لوصف بنية لغة ما أو جانبها الشكلي باعتبار دورها أي وظيفتها في إقامة التواصل بين مستعمليها. ولهذا يسعى معلمو اللغة إلى توجيه تعليم اللغة توجيها وظيفيا، أي أن يهدف تعليمها إلى إبراز القدرات التواصلية لدى المتعلم حتى يتمكن من ممارستها في مواضيعها الطبيعية ممارسة عملية سليمة.⁶

والوظيفة تتمثل في مفهومين أساسيين هما: "العلاقة" و "الدور" و الأخير هو الغرض أو المهمة. وفيما يلي نستعرض دلالة هذين المفهومين كما نصّ على ذلك أحمد المتوكل في كتبه لاسيما كتابي "قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية" و "التركيبات الوظيفية. قضايا و مقاربات":

أ- الوظيفة العلاقة:

تتمثل في "العلاقة القائمة بين الوحدات اللسانية في التركيب"⁷؛ وهي بهذا المعنى تعالج الوظائف النحوية للوحدات اللغوية داخل السياق الذي تأتي فيه؛ أي علاقة كل وحدة لغوية داخل التركيب بالوحدة المجاورة لها؛ مثل العلاقة الإسنادية (بين المسند و المسند إليه) ، علاقة النسبة (بين المضاف والمضاف إليه)، العلاقة التبعية (بين الصفة والموصوف)، ونحوها

ب- الوظيفة الدور:

الوظيفة هنا تتمثل في الغاية التي يحققها البشر عن طريق اللغة وهي التواصل⁸؛ فوظيفة كل اللغات الطبيعية هي التبليغ والتواصل، فالنحو الوظيفي ينطلق من الوظيفة الأولى المتمثلة في العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية داخل التركيب ليصل إلى الوظيفة الكبرى النهائية للغة وهي التواصل؛ فهو يربط ربطا وثيقا بين قطبي الظاهرة اللغوية ألا وهما: البنية والوظيفة، ولا يعالج أحدهما بمعزل عن الآخر، فالنحو الوظيفي ينطلق من داخل اللغة ليصل إلى خارجها أي من المبني إلى المعنى .

3- مفهوم العلاقات الوظيفية:

هي العلاقات الحادثة بين الوحدات اللسانية داخل التركيب اللغوي؛ وينتج عن هذه العلاقات معاني نحوية مختلفة تؤدي وظائف تركيبية يقتضيها سياق التركيب؛ وهي في الوقت نفسه قرائن معنوية دالة على المعاني النحوية؛ مثل العلاقة الإسنادية (مسند و مسند إليه)، علاقة النسبة (مضاف ومضاف إليه)، العلاقة التبعية (صفة وموصوف)، ونحوها.

ولتوضيح مفهوم هذه العلاقات نستعرض بعض الأمثلة التوضيحية؛ ففي الجملة الفعلية يفترق الفعل افتقارا متأسلا إلى الفاعل؛ إذ لا يُصور عقلا ومنطقا وجود فعل بدون فاعل أو حدث بدون مُحدث، ولذلك اعتبر النحاة الفاعل بمثابة الجزء من الفعل، فهما كالكلمة الواحدة؛ يقول ابن مالك:

والأصل في الفاعل أن يتصلا ** والأصل في المفعول أن ينفصلا⁹

فالعلاقة بين الفعل والفاعل هي علاقة إسناد؛ أي إسناد حدث إلى فاعله، أما العلاقة بين الفعل والمفعول فهي علاقة تخصيص؛ فالمفعولات بكل أنواعها تخصص النواة الإسنادية، نحو قولنا: "(أكرم خالد) زيدا طمعا في ماله مُستعينا على ذلك بحلاوة لسانه"؛ فالمفعول به والمفعول لأجله يُخصصان النواة الإسنادية، أما الحال فقد بينت حالة الفاعل أثناء تلبسه بالفعل؛ فالعلاقة الوظيفية التي أدتها الحال هي علاقة الملابس، أما العلاقة بين المضاف والمضاف إليه فهي علاقة نسبة؛ ففي المثال السابق نسبنا الحلاوة إلى اللسان دون غيره.

والأمر نفسه ينطبق على الجملة الاسمية فالمبتدأ والخبر يفترق كل منهما إلى الآخر افتقارا متأسلا والعلاقة بينهما علاقة إسناد أي إسناد وصف معين إلى صاحبه؛ ففي قولنا مثلا: "(السَّاءُ ملبَّدةٌ) بسحب كثيفة"، أسندنا وصف "التلبّد" إلى السَّاء، فالعلاقة بينهما علاقة إسنادية ثم أضفنا علاقتين خارجيتين عن النواة الإسنادية؛ الأولى هي علاقة النسبة بين حرف الجر ومجروره والثانية هي علاقة التبعية بين الصفة وموصوفها وهي تخص كل التوابع في اللغة العربية. بل إنه حتى في غياب المعنى المعجمي تبقى العلاقات الوظيفية تؤدي دورها في التركيب اللغوي؛ ففي النسق الهُرائي الذي اقترحه تمام حسان:

"قاصّ التَّجِينُ شَحَالَهُ بَرِّيَسُهُ الـ فَاحِي فلم يَسْتَفِ بِطَاسِيَةِ الْبَرْنِ"¹⁰

فرغم أن هذه الألفاظ لا معنى لها في المعاجم العربية إلا أننا نلمس وجود علاقات وظيفية أو معان نحوية بينها؛ فنلمس وجود علاقة إسنادية بين "قاص" و "التَّجَن" وعلاقة تخصيص بين هذه النواة الإسنادية و"شِخاله" وعلاقة تبعية بين "تريسه" و "الفاخي"، وعلاقة نسبة بين "شِخال" والضمير المتصل به، وعلاقة نسبة أيضا بين "طاسية" و "البرن". هذا وإن كان كثير من الباحثين قد اعترضوا على إقصاء المعنى المعجمي من التحليل النحوي كما فعل تمام حسان، إلا أننا شقنا هذا المثال للاستئناس به لتأكيد أهمية العلاقات الوظيفية أو المعاني النحوية في التحليل النحوي للتراكم اللغوي.

4- وظيفة اللغات الطبيعية:

وظيفة كل اللغات البشرية هو دورها المتمثل في تحقيق التواصل بين مستعمليها والإفصاح والبيان عن الأغراض والمعاني، لهذا يسعى النحو الوظيفي لتحقيق الوظيفة الكبرى للغات وهي التواصل انطلاقاً من الوظائف النحوية التركيبية وهي المعاني النحوية، وهذا يتحقق التكامل بين المبني والمعنى أو بين البنية والوظيفة، وبعبارة أخرى نستطيع القول أن النحو الوظيفي يجمع بين المستوى الداخلي للغة المتمثل في الوظائف النحوية والمستوى الخارجي المتمثل في المقام التواصل.

5- الاختلاف في تحديد مفهوم "النحو الوظيفي" عند اللغويين المعاصرين:

يلاحظ عن بعض المؤلفات النحوية التي تُعنى بالوظيفية أنها في الحقيقة مختلفة بعض الشيء عن المعنى الذي أشرنا إليه سابقاً، وإنما هي كتب للنحو الصوري أو التعليمي، وقد عدوا النحو التعليمي وظيفياً وجعلوا في مقابله النحو العلمي أو نحو نظرية العامل، فيقولون أنه النحو الذي يخلو من ضوابط وتأويلات نظرية العامل، وما هو إلا النحو المعياري الذي يضبط سلامة الكلام نطقاً وكتابة.

وعلى هذا فالوظيفية عند أصحاب هذه المؤلفات تقتصر على تعليمية النحو، والحقيقة أن الوظيفية أوسع من هذا بكثير، فالقضية وإن كانت اصطلاحية فلا ينبغي الخلط بين هذين المعنيين فالنحو الوظيفي عند مجموعة من الباحثين من ضمنهم - هاليداي مثلاً - هو الضوابط التي تُستعمل في تعليم الناشئين التلفظ والكتابة الصحيحة¹¹؛ فالنحو الوظيفي إذن حسب رأيهم يسعى إلى تكوين القدرات لممارسة الوظائف العادية للغات ممارسة سليمة في مختلف الميادين والمجالات، فالنحو الوظيفي - حسب هذا التوجه - هو نحو غايته التعليم من أجل امتلاك ملكة اللغة واستعمالها الاستعمال الصحيح حسب مختلف السياقات مع التركيز على الجوانب العملية منها.

ولهذا فإن الكثير من الباحثين انتقدوا ظواهر نحوية في التراث اللساني العربي - كظاهرة الاشتغال وما فُتِّرت به من تفسيرات علمية - من زاوية تعليمية صرفة غير مُفرقة بين النحو العلمي والنحو التعليمي؛ فالنحو العربي نحو علمي صوري لا يصلح للتدريس في المراحل التعليمية الأولى، والهدف منه اكتشاف أسرار نظام هذه اللغة وتفسير ظواهرها المختلفة تفسيراً علمياً؛ فهو نحو يُوجَّه للمختصين والباحثين في علم النحو لا لمتعلمي العربية.

فالوظيفية أوسع من أن تقتصر على التعليمية؛ لأن هذا النحو يُراعى الوظيفة الكبرى للغة المتمثلة في التواصل، بل يبني القواعد والأسس حسب ما يقتضيه السياق ومقام الكلام، وإنما النحو العلمي إضافة إلى صفة الوظيفية يتقيد بقواعد وأسس صارمة كونه علماً مضبوطاً، من بينها ما يلي:

- 1- البرهنة: التي تجعل نتائج العلم يقينية.
- 2- التنظير أي وضع الإطار المُنظَّم للعلم في مجالات التفسير والتوقع والتعقيد.
- 3- الموضوعية التي تكون عن طريق الاستقراء الناقص ويقينية النتائج.
- 4- الشمول ويمثل في مبدئي الحتمية والتجريد.
- 5- التماسك ويظهر في التصنيف وتوافق جزئيات المادة العلمية.

6- الاقتصاد وبه يستغني العلم بالأصناف عن المفردات والقاعدة عن كل الجزئيات التي تنضوي تحتها.¹²

وعلى هذا فالنحو هو العلم الذي يستخرج القواعد التي تُستنبط من استقراء الكلام للوصول إلى معرفة آليات عمل هذه القوانين على مستوى الجملة. فهو استنباط القواعد وتفسير ظواهر اللغة ومحاولة فهم أسرار نظام هذه اللغة

من أجل تكوين الملكة: "compétence" التي تعني الاستطاعة على تعلم اللغة وتكوين جمل صحيحة نحوياً⁵؛ فالملكة لا تكون بالقواعد المستنبطة من الكلام لأن هذه الأخيرة تنحصر في معرفة قواعد اللغة دون اكتساب طريقة استعمالها الصحيح.

الوظيفية في التراث اللغوي العربي من خلال كتاب سيبويه

1- المنحى الوظيفي في كتاب "سيبويه":

لا يقتصر كتاب سيبويه على القواعد النحوية التي يحتاجها متعلم اللغة حفاظاً على سلامتها من اللحن بل يحوي إضافة إلى ذلك بيانا دقيقاً لمقاصد العرب في كلامها وأنحاء خطابها؛ يقول الشاطبي: "كتاب سيبويه يُعلم منه النظر والتفتيش؛ والمراد في ذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها ومعانيها ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع وأن المفعول منصوب ونحو ذلك بل هو يبين في كل باب ما يليق به، حتى إنه احتوى على علمي المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني"¹³.

وطالما راعى سيبويه في تحليله النحوي مقتضى الحال؛ فإذا كان المخاطب خالي الذهن عن شيء يُسأل عنه فله مقام في الكلام وطريقة في الجواب تختلف عن شخص آخر يعلم الشيء ويتوقعه؛ فالأول لا يريد أكثر من العلم بالمجهول لديه، أما إذا كان يعلم الخبر الذي يسأل عنه فإنه يريد التأكيد فقط، فأسلوب التركيب يختلف في الحالتين تبعاً لمقام الكلام. فمما يثبت هذا التوجه الوظيفي في كتاب سيبويه - على سبيل المثال - معالجته لظاهرة الحذف الشائعة في كلام العرب والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بمقام الكلام، يقول سيبويه مُعللاً أسباب حدوث هذه الظاهرة: "وإنما أضمرنا ما كان يقع مُظهراً استخفافاً؛ ولأن المخاطب يعلم ما يعني، فجرى بمنزلة المثل، كما تقول: "لا عليك"، وقد عرف المخاطب ما تعني، أنه لا بأس عليك، ولا ضرر عليك، ولكنه حذف لكثرة هذا في كلامهم..."¹⁴، ويقول في باب "ما يُضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي": "وذلك قولك إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهه الحاج، قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكة ورب الكعبة"...كانك قلت: "يريد مكة والله"... ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: "الهلال ورب الكعبة" أي: "أبصروا الهلال"... وإنما أضمرت الفعل هنا وأنت تخاطب لأن المخاطب المخبر لست تجعل له فعلاً آخر يعمل في الخبر عنه..."¹⁵.

ويقول في السياق ذاته محلاً ظاهرة حذف المبتدأ: "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: "عبد الله"...كانك قلت: "ذاك عبد الله" أو "هذا عبد الله". أو سمعت صوتاً فرفعت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت: زيد...أو مسست جسداً أو شممت ريحاً فقلت: زيد، أو المسك، أو ذقت طعاماً فقلت: العسل..."¹⁶.

فهذه التحليلات تدل على إدراك سيبويه للبعد الاجتماعي للغة؛ وأنه لا بد من دراسة البنى اللغوية في ضوء علاقتها بوظيفتها التواصلية، بل إنه حسب هذه التحليلات لا يمكن دراسة بنية اللغة بمعزل عن وظيفتها التواصلية أو سياقها الاجتماعي.

2- ربط التراكيب اللغوية بالمقامات التواصلية في التحليل النحوي عند سيبويه:

من مظاهر ربط البنية بالوظيفة عند سيبويه مراعاة مقتضى الحال في تعريف المسند إليه؛ حيث يحلل سيبويه أغراض المخاطب في الكلام؛ فنصاغ بنية الكلام حسب ما يقتضيه المقام وسياق الحال؛ فحال المسند إليه من الناحية التركيبية يرتبط ارتباطاً مباشراً بمقاصد الكلام وأغراضه. يقول سيبويه في كتابه: "...إذا قلت "عبد الله منطلق" تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر؛ وذلك قولك: "كان زيد حليماً" و"كان حليماً زيد"... فإذا قلت كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك، فإنما ينتظر الخبر فإذا قلت: "حليماً"، فقد أعلمته مثل ما علمت. فإذا قلت كان حليماً فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة فهو مبدوء به في الفعل وإذا كان مؤخراً في اللفظ. فإذا قلت: "كان حليماً" أو "رجل" فقد بدأت بنكرة ولا يستقيم أن نخبر المخاطب عن المنكور... فالمعروف هو المبدوء به ولا يُبدأ بما يكون اللبس فيه وهو النكرة."¹⁷

ومن مظاهر تعالق البنية بالوظيفة عند سيبويه معالجته لبعض من أبواب علم المعاني؛ ومن ذلك مثلاً ما تناوله في باب التنازع؛ حيث يقول: "ومما يقوي ترك نحو هذا لعلم المخاطب قوله عز وجل: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب : 35)؛ فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول استغناء عنه، و مثل قوله ذلك: "ونخلع وترك من يفجؤك"،¹⁸ ويعلل الحذف هنا بكون المحذوف معلوما لدى السامع، وهنا ربط سيبويه الحذف على مستوى البنية بسياق الحال ومقام الكلام، أي ربط البنية بالوظيفة.

ويتطرق فيما يتطرق إليه من مباحث ربط البنية بالوظيفة فيتحدث عن الإضمار ويربطه بحال السامع فيجوز إذا كان المخاطب عالماً به؛ فيقول: "فما جاء على "وَقَعَ" قوله:

فَدَى لَبْنِي ذَهْل بَنِي شَيْبَانَ نَاقِي * * إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبِ أَشْهَبُ

أي: "إذا وَقَعَ"، وقال الآخر عمرو بن شأس:

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بِلَاءَنَا * * إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبِ أَشْنَعَا
إِذَا كَانَتْ الْحَوَّ الطَّوَالُ كَأَنَّمَا * * كَسَاهَا السَّلَاحُ الْأَرْجَوَانُ الْمَضْلَعَا

أضمر لعلم المخاطب بما يعني وهو اليوم، وسمعت بعض العرب يقول أشنعاً ويرفع ما قبله، كأنه قال: "إذا وقع يومٌ ذو كواكب أشنعاً".¹⁹

ثم يتحدث عن إضمار "كان" فيقول: "وقال ابن همام السلولي:

وَأَحْضَرْتُ عُذْرِي عَلَيْهِ الشُّهُودُ * * إِنَّ عَاذِرًا لِي وَإِنْ تَارَكَ

فنصبه لأنه عنى الأمير المخاطب، ولو قال: "إِنَّ عَاذِرًا لِي وَإِنْ تَارَكَ"، يريد إن كان لي في الناس عاذرٌ أو غير عاذر جاز".²⁰

ومن المباحث التي عالجها سيبويه مجلياً فيها علاقة البنية بالوظيفة مبحث القصر، فيقول: "ومن ذلك قولك: "ما أتاني القوم إلا عمرو؛ وما فيها القوم إلا زيد، وليس فيها القوم إلا أخوك، وما مررت بالقوم إلا أخيك"؛²¹ فالمخاطب هنا يريد إزالة الشك لدى السامع، فأراد أن يؤكد للمخاطب أن الآتي عمرو وأنه لا يوجد في القوم إلا زيد، وأنه لم يمر بأحد منهم إلا أخيه.

ويضيف سيبويه متحدثاً عن معنى القصر فيقول: "فأما الوجه الذي يكون الاسم بمنزلة قبل أن تلحق به "إلا" فهو أن تدخل الاسم في شيء تنفي عنه ما سواه؛ وذلك قولك: "ما أتاني إلا زيد وما لقيت إلا زيدا"، "وما مررت إلا بزيد"؛ فأدخلت "إلا" لتوجب الأفعال لهذه الأساء ولتنفي فصار هذه الأساء مستثناة".²²

وفي باب القصر - وهو من الأبواب التي يتجلى فيها تعالق البنية بالوظيفة - يستند الجرجاني في كلامه على الأداة "إنما" على تحليل سيبويه للتقديم والتأخير في باب "كان" فينقل كلام سيبويه في كتابه وهو قوله: "فإذا قلت: "كان زيد" فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك وإنما ينتظر الخبر، فإذا قلت: "حلباً" فقد أعلمته مثل ما علمت وإذا قلت: "كان حلباً" فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة،"²³؛ فنلاحظ هنا كيف يركز سيبويه على حال المستمع ليبيّن على ذلك تحليله لبنية الكلام، فمدار تركيب الكلام عند سيبويه يحدده أولاً وأخيراً حال المتلقي للخطاب، فالبلغيون - وعلى رأسهم الجرجاني - انطلقوا في دراستهم لأسلوب القصر وأدواته من تحليلات سيبويه للتقديم والتأخير، وهو من أهم المباحث التي يتجلى فيها تعالق البنية بالوظيفة.

ومعالجة سيبويه لأساليب الكلام كأسلوب الاستفهام خير دليل على الوجهة الوظيفية التي نحاها سيبويه في دراسته لكلام العرب؛ فهاهو مثلاً يتحدث عن خروج هذا الأسلوب عن الغرض الذي وُضع له إلى أغراض أخرى يقتضيها مقام الكلام حسب حال السامع، فيقول محلاً قولهم: "تمتياً مرة، وقيسياً أخرى؟!": "كأنك قلت أنت تحولٌ تميماً مرة وقيسياً أخرى، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل وليس يسأل مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه، ولكنه ونحوه بذلك"؛²⁴ فالاستفهام هنا كما يرى سيبويه ليس للاستعلام؛ لأن السائل يعلم عن المخاطب ما يسأل عنه وإنما غرضه الإنكار والتوبيخ.

لم تكن قضية العامل وقرينة الإعراب هي الشغل الشاغل لسيبويه في كتابه وإنما النحو عنده على شاكلة ابن جني هو انتحاء سمت كلام العرب في البنية والوظيفة ومراعاة المقام ومقتضى الحال من تقديم و تأخير أو ذكر و حذف أو

فصل و وصل أو قصر و إطلاق أو تعريف و تنكير، فالإعراب عنده فرع للمعنى؛ والمقام وسياق الحال هو المعيار عنده لقبول أو رفض البنى اللغوية، فالمعاني والأغراض عند سيبويه هي التي تصوغ البنية، فالتنوين في اسم الفاعل معنى مختلف عن تركه فيقول: "إذا أردت فيه من المعنى ما أردت في «يفعل» كان نكرة منونا وذلك قولك: «هذا ضارب زيدا غدا»؛ فمعناه وعمله مثل «هذا يضرب زيدا غدا»...»²⁵ ويقول: "إذا أخبر أن الفعل قد وقع وانقطع فهو بغير تنوين البتة لأنه إنما أحري مجرى الفعل المضارع"²⁶، وهذا يعتمد على المتكلم المنشئ للخطاب فإذا أراد أن يحدث قد وقع وانقطع فاسم الفاعل بغير تنوين، والقرينة التي تحدد معنى إثبات التنوين أو تركه في اسم الفاعل هي ما يفيد معنى الحال والاستقبال أو الماضي.

وهكذا نلاحظ كيف يربط سيبويه البنية بمقامات الكلام؛ فالنحو عنده نحو وظيفي حيوي يرتبط بظروف الخطاب وليس نحواً معياراً جافاً، فالنحو عنده لا ينفك عن البلاغة ممثلة في مقاصد وأغراض الكلام؛ يقول نهاد الموسى محملاً هذه القضية: "لم تكن اللغة عند سيبويه تنفك عن ملاسبات استعمالها، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي التي تكشف عن الاستعمال اللغوي."²⁷ فحصول الكلام أن كتاب سيبويه لم يقتصر على مسألة العامل وقرينة الإعراب وإنما النحو عنده على شكلة ابن جني هو اتباع منهج العرب في كلامها في البنية والوظيفة فالإعراب عنده فرع للمعنى؛ والمقام وسياق الحال هو المعيار عنده لقبول أو رفض البنى اللغوية، فالمعاني والأغراض عند سيبويه هي التي تصوغ البنية.

3- المقام وسياق الحال في كتاب سيبويه:

لم يكن سيبويه يرمح وحماً إعرابياً إلا لأن المعنى يطلبه أو السياق يرشحه، ومن هنا كانت عناصر النظام اللغوي كاملاً وهي: المتكلم {المرسل} والمتلقي {المخاطب} والكلام {الرسالة} محور اهتمام سيبويه في أثناء عرضه المسائل النحوية والصرفية في كتابه ولم يقص أحداً منها أو ينقص من قيمته، كما تحققت فكرة المقام ومقتضى الحال عنده من خلال ما يعرف بالقارئ الحالية أو المقالية، كما لاحظ اهتماماً كبيراً بتحليل التراكيب فلا يقف عند وصف الظواهر اللغوية وإنما يربطها بالمواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلبس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام.²⁸

وقد تنبه سيبويه إلى دور السياق في تحديد البناء الداخلي للغة وبيان المقصود من البناء الخارجي فيقول: "يقول الرجل: "أنا في رجل"، يريد واحداً في العدد لا اثنين، فيقال: "ما أتاك رجل" أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: "أنا في رجل لا امرأة" فيقال: "ما أتاك رجل أي امرأة أتتك"، ويقول: "أنا في اليوم رجل"؛ أي في قوته ونفاذه فتقول: "ما أتاك رجل" أي أتاك الضعفاء»؛²⁹ فجملة "ما أتاك رجل" تحتمل حسب السياق الذي ترد فيه أن تدل على العدد، أو تدل على الجنس، أو تدل على الحالة حالة الرجل؛ فالسياق هو الذي يحدد المعنى.

فالجملة عند سيبويه ليست إلا جزءاً من سياق كلامي موصول، حيث يستحضر في تحليله لها كل عناصر السياق المحيطة بالفعل الكلامي؛ فيقول - مثلاً - محملاً أحد المواقف الكلامية: "فأما الفعل الذي لا يحسن إضماره فإنه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذكر ضرب ولم يخطر بباله، فتقول: زيدا، فلا بد له من أن تقول له: "اضرب زيدا...وأما الموضع الذي يُضمر فيه وإظهاره مستعمل، فنحو قولك: زيدا، لرجل في ذكر ضرب، تريد: اضرب زيدا..."³⁰

فالنظام اللغوي عند سيبويه يتألف من عناصر داخلية وهي عناصر لغوية صرفية وأخرى من العالم الخارجي تُدرك بالحواس الخمسة، ولسان حال سيبويه يقول أن لكل مقام مقال ولا مجال للفصل بين أبنية الكلام ومقاماتها التواصلية.³¹ وعلى هذا فإن مراعاة سياق الكلام والحال وما يكتنفه من قرائن كمعرفة المستمع بمقاصد المتكلم في التمييز ونفي اللبس كما فعل سيبويه هو جوهر مفهوم نظرية النظم التي تجعل لكل استعمال معناه، وتغيير الاستعمال لا بد أن يشأ عن تغيير المعنى تبعاً للمقام، فسيبويه لم يكن يفرق بين النحو وعلم المعاني، والنحو عنده ليس مجرد النظر في أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء وما فيها من حركات وسكنات وإنما النحو عنده يشمل هذا كله ويشمل تأليف الجملة ونظمها وسر تركيبها وبيان ما فيها من حسن أو قبح، ولا شك أن هذا لا يشمل البنية فحسب وإنما يشمل أيضاً الوظيفة التي هي القرين الذي لا ينفك عنها .

فسيبويه إذن قد ساهم مساهمة فعالة في التأسيس لنحو وظيفي للغة العربية في وقت مبكر، ولذلك استحق أن يكون لسيبويه وكتابه منزلة خاصة بين العلماء فهذا عبد القاهر ينوه بشأن سيبويه ويعتبره واحداً من أصحاب الكتب

المبتدأة الموضوعية في العلوم المستخرجة، فمنهج سيوييه في كتابه جامع بين النحو وعلم المعاني أو بين البنية والوظيفة، فلا يغفل في تحليله النحوي حال المخاطب والمتكلم وسياق الحال ويربطها ربطاً وثيقاً ببنية الكلام كما لاحظنا ذلك من خلال نماذج حية من كتابه؛ وذلك ما تحرص عليه اللسانيات الوظيفية التداولية المعاصرة وتجعله أهم اهتماماتها، مما يجعلنا نقرر ونقول أن سيوييه من العلماء الأوائل الذين أسس النحو الوظيفي في التراث اللساني العالمي.

خاتمة:

- ونلخص موضوعنا هذا وما توصلنا إليه من نتائج وتوصيات فيما يلي:
- 1- كان النحو العربي في نشأته الأولى في مجمله نحواً وظيفياً يفسر تغيرات المبنى تبعاً للمقام التواصلية.
 - 2- بُنيت نظرية العامل النحوي على أسس علمية متينة مكنتها من تفسير جل الظواهر اللغوية تفسيراً منطقياً دقيقاً من خلال ربط البنية اللغوية بوظيفتها التواصلية.
 - 3- عالج نخاة العربية الجملة من الناحية الوظيفية من خلال نظرية العامل التي وضع أسسها سيوييه في كتابه.
 - 5- لا تكاد توجد نظرية علمية تستطيع استيعاب الظاهرة اللغوية كلها بنيةً ووظيفةً لصعوبة ضبط الظواهر اللغوية خصوصاً ما يتعلق بالجانب الوظيفي، إلا أن نظرية العامل النحوي استطاعت أن تفسر كثيراً من ظواهر اللغة العربية تفسيراً علمياً دقيقاً وذلك لأنها اتّسقت وفق أصول علمية رصينة.
 - 6- تُعدّ محمود سيوييه في التحليل النحوي الوظيفي على مستوى الجملة اللبنة الأولى لتأسيس علم المعاني الذي اكتمل واستقل كعلم قائم بذاته على يد الجرجاني من خلال نظرية النظم.
 - 7- ينبغي إعادة الاعتبار للنظرية النحوية العربية التي أسس لها سيوييه باعتبارها نظرية وظيفية متكاملة تحدت لظهور علم المعاني الذي جسّد الانتقال من ميدان نحو الجملة إلى ميدان نحو النص.

الإحالات:

- 1- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تخ: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية: القاهرة- مصر، 1376هـ- 1957م، ج: 1، ص: 34.
- 2- الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد)، تاج اللغة وصحاح العربية، تخ: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ط: 4، 1407هـ- 1987م، ج: 4، ص: 439.
- 3- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم)، لسان العرب، دار صادر: بيروت- لبنان، ط: 3، 1414هـ، ج: 9، ص: 358.
- 4- أنيس (إبراهيم) وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر: بيروت، ط: 3، 1392هـ- 1972م، ج: 2، ص: 42.
- 5- الحناش (محمد)، البنيوية في اللسانيات، دار الرثاء الحديث، ط1، الدار البيضاء، المغرب 1980، ص 96.
- 6- عبد القادر (أحمد محمد)، طرق تعليم اللغة العربية، مكتبة النهضة، مصر، ط: 5، 1986 و: عباس (إبراهيم خليل)، التعلم الوظيفي للغة- النحو الوظيفي نموذجاً، مقال منشور بمجلة بيبال للعلوم الإنسانية، مجلد: 28، ع: 6، 2020، ص: 277.
- 7- المتوكل (أحمد)، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان: الرباط، 1995م، ص: 14- 15. المتوكل (أحمد)، التركيبات الوظيفية. قضايا و مقاربات، دار الأمان: الرباط 2005، ص 21.
- 8- المتوكل (أحمد)، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديدة: بيروت، ط: 2، 2010، ص: 51- 52، المتوكل (أحمد)، التركيبات الوظيفية. قضايا و مقاربات، ص: 23- 24.
- 9- ابن مالك (محمد بن عبد الله الأندلسي)، المكتبة الشعبية: بيروت، (د، ط- د، ت)، ص: 17.
- 10- حسان (تمام)، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة: الدار البيضاء، 1994م، ص: 183- 184.
- 11- عبد العلم إبراهيم، النحو الوظيفي، دار المعارف (القاهرة)، (د، ط- د، ت)، ص: 3، ينظر: علي بيبي، الاتجاه الوظيفي في تدريس النحو العربي، مجلة حوليات التراث، كلية الآداب والفنون، جامعة مستغانم، العدد: 9، 2009، ص: 46.
- 12- حسان (تمام)، الأصول، القاهرة- مصر، عالم الكتب، 2000، ص: 16.
- 13- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ضبط: محمد عبد الله دراز، المكتبة التجارية، 1975: 60/4.
- 14- سيوييه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، كتاب سيوييه، تخ: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3، 1408هـ - 1988م : 1/ 224- 225.
- 15- المصدر نفسه، ج: 1، ص: 258، 257.
- 16- المصدر نفسه، ج: 2، ص: 130.
- 17- المصدر نفسه، ج: 1، ص: 47- 48.
- 18- المصدر نفسه، ج: 1، ص: 74.
- 19- المصدر نفسه، ج: 1، ص: 47.

- 20- المصدر نفسه: ج: 1، ص: 262.
 - 21- المصدر نفسه: ج: 2، ص: 311.
 - 22- المصدر نفسه: ج: 2، ص: 310.
 - 23- المصدر نفسه: ج: 1، ص: 47-48.
 - 24- المصدر نفسه: ج: 1، ص: 343.
 - 25- المصدر نفسه: ج: 1، ص: 164.
 - 26- المصدر نفسه: ج: 1، ص: 171.
 - 27- الموسى (نهاد)، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1980، ص: 92.
 - 28- سلطاني (محمد)، تعالق النحو والبلاغة من خلال عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مخطوط رسالة ماجستير، إشراف: مسعود صراوي- جامعة الأغواط (2016م).
 - 29- سيويه، كتاب سيويه: 1/ 55.
 - 30- المصدر نفسه: ج: 1، ص: 296-297.
 - 31- الموسى (نهاد)، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص: 90.
- قائمة مصادر ومراجع البحث:**
- 1- أنيس إبراهيم، منتصر عبد الحليم، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، (2004م). المعجم الوسيط، ط: 3، بيروت- لبنان، دار الفكر.
 - 2- بيبة علية، (2009م)، الاتجاه الوظيفي في تدريس النحو العربي، مجلة حوليات التراث، كلية الآداب والفنون، جامعة مستغانم، المجلد: 1 العدد: 9، ص: 51-62.
 - 3- بحيري سعيد حسن، (2004م)، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، القاهرة، مؤسسة المختار.
 - 4- ابن جني أبو الفتح عثمان، (1957م)، الخصائص، القاهرة- مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
 - 5- الحناش محمد، (1980م)، البنوية في اللسانيات، ط: 1، البار البيضاء- المغرب، دار الرثاء الحديث.
 - 6- حسان تمام، (2000)، الأصول، القاهرة (مصر)، عالم الكتب.
 - 7- الخالدي سارة عبد الله، (2006م)، أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيويه، أطروحة ماجستير، الجامعة الأمريكية: بيروت- لبنان.
 - 8- ابن خلدون عبد الرحمان، (2005م)، المقدمة، تح: عبد السلام الشدادى، البار البيضاء، المغرب، دار توبقال.
 - 9- درويش أحمد، (1998م). دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، القاهرة- مصر، دار غريب.
 - 10- ابن السراج أبو بكر محمد، (1996م)، الأصول في النحو، تح: الفتلي، ط: 3، بيروت- لبنان، مؤسسة الرسالة.
 - 11- سلطاني محمد، (2016)، تعالق النحو والبلاغة من خلال كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أطروحة ماجستير، جامعة عمار ثلجي - الأغواط، الأغواط (الجزائر).
 - 12- السليطي سعيد طيبة، (2002م)، "تدريس النحو العربي في ضوء الاتجاهات الحديثة"، القاهرة- مصر، البار المصرية اللبنانية.
 - 13- سيويه عمرو بن عثمان أبو بشر، (1988م) كتاب سيويه، تح: عبد السلام هارون، ط: 3، القاهرة، مكتبة الخانجي.
 - 14- الشريف الجرجاني علي بن محمد، (1983م)، التعريفات، (بيروت- لبنان)، دار الكتب العلمية.
 - 15- فوك كاترين، فوفيك يبارلي، (1984م)، "مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة"، تعريب: المتصف عاشور، بن عكنون- الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
 - 16- الفيروز آبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (2005م)، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، ط: 8، بيروت- لبنان، مؤسسة الرسالة.
 - 17- القزويني (أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)، (1993م)، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت- لبنان، دار الجيل.
 - 18- مبارك مبارك، (1995م)، معجم المصطلحات الألسنية (فرنسي-إنجليزي-عربي)، بيروت- لبنان، دار الفكر اللبناني.
 - 19- المتوكل أحمد، (2005م)، التركيبات الوظيفية - قضايا و مقاربات، الرباط- المغرب، دار الأمان.
 - 20- المتوكل أحمد، (1995م)، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، الرباط- المغرب، دار الأمان.
 - 21- المتوكل أحمد، (2010م)، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ط: 2، بيروت - لبنان، دار الكتاب الجديدة.
 - 22- ابن هشام الأنصاري أبو محمد عبد الله بن يوسف، (1994)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: يوسف محمد البقاعي، بيروت- لبنان، دار الفكر.
 - 23- هلبش جرهارد، (2003م)، تاريخ علم اللغة الحديث ترجمه وعلق عليه سعيد حسن بحيري، القاهرة- مصر، مكتبة زهراء الشرق.